اخترنا لك :

بعد الحرب العالمية الرابعة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

لم تحدث الحرب العالمية الرابعة ولا الثالثة ، ونرجو ألا تحدث الحرب العالمية ثالثة أو رابعة فى الترتيب ، وأن يحمى الله بنى الإنسان من شرورها المنظورة وغير المنظورة فانهم لم يسلموا بعد من شرور الحربين الأولى والثانية .

ولكن الحرب المحذورة حدثت فى عالم الخيال ، ووصفها لنا كاتب من أشهر كتاب الصين فى العصر الحديث ، وأدار عليها قصة مطولة من قصصه الممتعة التى يقبل عليها قراؤه الغربيون ، وان لم تكن مقبولة فى بلاده الآن .

هذا الكاتب الصينى هولين يوتانج القصاص الفيلسوف ، وعنوان قصته الجديدة « الجزيرة غير المنتظرة » .

وموضوعها - أو موضعها - جزيرة منعزلة فى البحر المحيط على مقربة من أمريكا الجنوبية ، لا يدرى أحد بها ولا يسمح سكانها لمن يصل إليها بأن يخرج منها ، خوفا من إذاعة سرها واقتحام الوافدين لجوارها ، وحرمانها نعمة النظام الوادع الأمين الذى تعيش فيه ، بمعزل من الحضارة وآفاتها ومنازعاتها وعلى رضى من سكانها اللاجئين اليها .

هى اذن جزيرة « روبنسون كروزو » تخلق على الطراز العصرى ، بعد مائتى سنة ونحو خمسين سنة من ظهور الجزيرة الأولى ، وبعد أن تكاثرت الجزر أو العالم المنعزلة التى على شاكلتها ونقلها بعضهم من الأرض إلى أجواز الفضاء .

وكثير منا يذكرون قصة « روبنسون كروزو » التى قرأوها ملخصة فى الكتب المدرسية ، وكثير من الأطفال يقرأونها اليوم ويحلمون بمغامراتها ويتمنون لو تشبهوا بأبطالها

وقد كانت تحية الأطفال لمؤلفها فى قبره تحية مصرية مستمدة من التاريخ المصرى القديم ، فأقاموا قبل ست وخمسين سنة « مسلة » مصرية على ضريح المؤلف دنيال ديفوى جمعوا تكاليفها من تبرعاتهم الصغيرة ، وقالوا إنها تذكار من قرائه ومحبيه الكثيرين بين الصبيان والبنات ؛

يحب الاطفال هذا النوع من القصص ، لأن كل طفل فى الواقع إنما هو « روبنسون كروزو » يفتح عينيه على جزيرة جديدة فى هذا العالم ، ويتطلع إلى اليوم الذى يستقل فيه بشئونه ويدبر فيه أمر حياته بيديه .

على أن الكبار أيضا يحبون هذا النوع من القصص عن الجزائر المنعزلة ، لأنهم يضيقون أحيانا بالأعباء الاجتماعية والقيود التى تثقلهم بها نظم الحضارة فى كل زمن ويودون لو ينعمون - ولو فى الخيال - بحياة يقنعون فيها بالكفاف ، وينشئون فيها لأنفسهم مايختارونه من المسكن والملبس والطعام ، ويخلقون فيها قوانينهم وشرائعهم بغير رقيب ولا حسيب ، لأنهم لا يفرضونها على أحد سواهم ولا يفرضها عليهم أحد .

وهذ القصة - قصة روبنسون كروزو - ذات شأن فى الأدب لغير هذا السبب ، ولعلها ذات شأن عند قراء العربية خاصة ينفردون به بين قرائها فى جميع اللغات .

فهذه القصة طليعة الفن الروائى فى العصر الحديث ، لم تسبقها قصة من قبلها ، ولم يكن للرواية العصرية رائد من المؤلفين بلغات الغرب قبل مؤلفها .

أما شأنها عندنا نحن قراء العربية فهو راجع إلى فضل الأدب العربى فى الإيحاء بها على ارجح الأقوال .

فقد ظهرت قبلها قصة « حى بن يقظان » مطبوعة فى لندن سنة ١٦٧١ ... وظهرت قبلها قصص الجزائر التى ترويها ألف ليلة وليلة ، وينعزل فيها بعض السكان بمعيشة غير المعيشة التى يألفها الناس فى سائر البلدان .

ومن المعلوم أن دنيال ديفوى

لقى فى حياته السائح سلكيرك الذى اعتزل الدنيا باختياره أربع سنوات فى إحدى جزر المحيط ، ولكن سلكيرك فعل هذا فى سنة ١٧٠٤ بعد ظهور « حى بن يقظان » بثلاث وثلاثين سنة ، فكانت مغامرته فى رأى بعضهم من وحى الاطلاع على ذلك الكتاب الفريد.

أما الجزيرة العصرية - جزيرة الفيلسوف الصينى - فهى مخالفة بعض المخالفة لجزيرة دنيال ديفوى وجزيرة حى بن يقظان .

تلك جزيرة « الفرد » الذى يستقل بحياته ، وهذه جزيرة « المجتمع » الذى يستقل بآدابه وعلاقاته ونظراته العامة إلى الوجود كله ، وإلى العلوم والأديان .

ونحن نسميها جزيرة عصرية لأن مؤلفها يعيش بيننا فى العصر الحاضر ولكنها فى الواقع « جزيرة المستقبل » لأنها تعيش فى سنة ألفين وما تقدمها بقليل من السنوات .

والفيلسوف الصينى لا يجعلها جزيرة مثالية كجزائر الأحلام من أصحاب المدن الفاضلة والعوالم الخيالية المعروفين بالطوبيين .

كلا . . ان الفيلسوف الصينى أمين لطبيعة قومه ، فهو لا يذهب بعيداً مع الخيال ، ولا يزال يعتقد أن المثل الأعلى يرهق النفوس البشرية بالمطالب المستحيلة ، فتتعثر فى الشقاء وهى تطمع إلى السعادة والسلام .

انما العالم كما يتمثله « يوتانج » بعد خمسين سنة عالم قريب مما نحن فيه . وقد يمتاز من عالمنا الحاضر ببعض المزايا ولكنه - من جراء تلك المزايا - يتعرض للمتاعب والمشكلات .

تتحسن أحوال الصحة ، وينجح الطب فى علاج الأمراض المستعصية ويتعلم الناس أسباب الوقاية ، وكل ذلك حسن مطلوب ، ولكنه يؤدى إلى نتيجته التى لا مناص منها ، وهى زيادة السكان وازدحام المساكن وقلة الطعام ، ويضطر ولاة الأمر إلى اتخاذ الحيطة لهذا الخطر الذى جاء من طريق السلامة فيفرضون الضرائب الثقيلة على كل طفل يولد بعد الطفل الثالث ، ويشجعون على قلة النسل بدلا من التشجيع على زيادته بالوصايا والاعلانات .

ويبقى الجنس البشرى على درجات فى الحضارة لا تتساوى ، ولكن الفيلسوف الصينى يختصر الطريق فلا يضع الفوارق بين هذه الدرجات بعلامات العقول والعلوم بل بعلامات الأقدام والأحذية . .

فالحضارة العليا تمتاز بالحذاء ، والحضارة الوسطى تمتاز بالنعال ، وما دون ذلك فهو عالم « الحفاء » المحروم من الحضارة ! . .

ويتنبأ الفيلسوف للأمم والدول كما يتنبأ للجنس البشرى كله ، فالديمقراطية الأمريكية تنقلب إلى دكتاتورية لتنفيذ النظم التى يستدعيها تدبير المحاصيل والمصنوعات . ويأتى من بلاد العرب من يعارض هذه الدكتاتورية .

أما الكتلة الشرقية فيختفى منها شعار المنجل والمطرقة ، ويخلفه شعار المكتب والدواة ، لأن المجتمع الذى حاول أن يلغى نظام الطبقات ينقسم يومئذ إلى طبقتين اثنتين : طبقة الجالسين على المكاتب ، وطبقة الواقفين فى انتظار الأوامر ، ويتغير كل شىء وفاقا لهذا التغيير .

وتظل بريطانيا العظمى عائشة بعد هدم عاصمتها ، ويقوم على عرشها الملك شارل الثالث يحف به رعاياه من أعضاء النقابات .

ويحتاج النواب فى فرنسا إلى رياضة جديدة على هز الكتفين لاتقاء الاخذ بالرقبة فى أثناء المناقشات وتبقى فرنسا مركزا لثقافة القارة كما كانت

وتتطرف ايطاليا إلى اليسار ولا يبالى أحد ما تصنع ، لأنها إذا ذهبت إلى أقصى اليسار وجدته قد تحول الى اليمين .

وما مصير الحياة الروحية او الفكرية عند نهاية القرن العشرين ؟

لا بد من الدين على كل حال ، ولا بد للإنسان من معبود يعتصم به من هذا العالم المحسوس ، ولا بد من الصلاة كما يوحى بها كل ضمير ، مع السماحة التى تقرب بين جميع الملل والعبادات . .

وتغلب على الفكر عقيدة « المتعة بالحياة » . . ولكنها متعة بريئة من العقد النفسية ، ومن الشطط إلى حدود الإباحة والابتذال .

وتنحل مشكلة الجنسين بالرجوع إلى قواعد الحكمة الشرقية ، فيصبح

شعار المدرسة النسائية أن دراسة المرأة الصحيحة هى الرجل.. وتتعلم المرأة فى المدرسة كيف تسوس قرينها وكيف ترضيه وترضى نفسها معه عن البيت ، وتتعرف الجوانب المظلمة من الطبيعة البشرية كما تتعرف الجوانب المشرقة ، ويحتفل بإتمام دراستها فى المعهد إحتفالا رمزياً ، ينتهى بتسليمها صورة كتاب من الطين ، تقذف به إلى جوف الماء ، إيذاناً بختام القراءة وابتداء العمل فى الحياة .

ومهما يكن من مصير التعليم والثقافة والدين ، فسوف يظل الجنس البشرى منقسما إلى قسميه الخالدين قسم الإنسان الذى يعنى بشئون نفسه ولا يتطفل على شئون غيره ، وقسم الإنسان الذى لا يستريح حتى يدخل فيما لا يعنيه ويملى على غيره ما ينبغى وما لا ينبغى من خاصة أمره .

وإذا كان تبديل الطبيعة البشرية مستحيلا أو كالمستحيل ، فمن الممكن أن يستفاد من هذين القسمين كما خلقا فى هذه الدنيا ، فيتعلم الفضوليون أن يصرفوا فضولهم إلى المنفعة العامة وأن يعنوا بخدمة الناس ولا يحصروا عنايتهم فى حب الإستطلاع والتعرض للخصوصيات ، ويتعلم الفريق الآخر إتقان عمل الفرد والإستغناء به عن المشرفين والمراقبين ، وتخلق من الضرورة فائدة كما يقولون .

ويبالغ الفيلسوف الساخر فى التهكم فيقول أن العلوم النفسية تتقدم فى المستقبل فيعرف رجال الدين وهداة الأمم أساليب للامتحان يسبر بها غور الإنسان وتقاس بها الفضائل والرذائل بالسنتيمترات ويكفى فيها توجيه قليل من الأسئلة لاستكشاف أعمق أسرار الضمير ورسمه كما ترسم نبضات القلوب .

وعند الفيلسوف « الواقعى » أن هذا العالم منا وأننا نحن من هذا العالم ، وأن الطبيعة صديقة لنا إذا أردنا صداقتها ، ولكنها تلتوى علينا إذا أنكرنا حقها وأصررنا على تسخيرها واستعبادها ، ولم تخلق الجبال — كما يقول — لنعلوها دائماً ونستوى على قمتها أبدا ، بل خلقت كذلك لننظر إليها ونرتفع بالنظر إلى أعاليها ، ونترقى فيها هنيهة ونستريح هنيهة ، ولا نشقى فى حالة من الحالات لأننا لا نستطيع أن

نحملها على أكتافنا !

وربما كانت الكلمات التى تتخلل القصة أجمل من الآراء والتقديرات ولكن الحكمة الغالبة عليها أن الحياة لا تخلو من مشاكلها وأننا إذا قضينا على بعض سيئاتنا كان الخلاص من هذه السيئات مشكلة جديدة ، وأن توطين النفس على هذه الحقيقة يساعدنا على احتمال مالا بد منه ، فإن لم نسترح منه فقد نستريح من صدمة المفاجأة . فلا يطرأ لنا يوماً على غير انتظار .

كذلك تخيل الفيلسوف الصينى عالمنا فى نهاية القرن العشرين ، وكذلك تخيل الجزيرة التى تنفرد بسكانها عالماً مستقلا عن حضارة القرن الحادى والعشرين

ما العبرة من كل هذه الأحلام ؟ ما العبر من هذه الجزر النائية التى راودت الخيال الإنسانى وستراوده فى كل زمن ؟ . . العبرة فى نفس كل إنسان .. العبرة أن الإنسان لا يستطيع أن يظفر بأمل فى السعادة إلا إذا استطاع أن يخلق لنفسه جزيرة يأوى إليها كلما شاء ، وأنها لخير من جزيرة روبنسون كروزو ، وجزيرة لين يوتانج وجزيرة حى بن يقظان

عباس محمود العقاد

مكانة الذكر

اخرج الامام احمد فى باب الزهد ، عن ثابت قال : كان سليمان الفارسى رضى الله عنه فى عصابة يذكرون الله تعالى ، فمر النبى ﷺ وسلم بهم ، فكفوا ، فقال صلى الله عليه وسلم ، إنى رأيت الرحمة تنزل عليكم ، واحببت أن اشارككم فيها .

ثم قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معه . »